

منهج الطَّبْرِيِّ فِي السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي كِتَابِهِ «تَارِيخَ الرَّسْلِ وَالْمَلُوكِ»

أ.د. مُحَمَّدٌ كَرِيمُ الْجَمِيلِي * ◆

المُلخَص:

نسعى في هذا البحث المُقتضب إلى الكشف عن أبرز المعالم العامّة لمنهج أبي جعفر محمد بن جرير الطَّبْرِيِّ (ت ٣١٠هـ) في تدوين السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ، في تاريخه الشَّهير «تاريخ الرّسل والملوك». فقد وضع الطَّبْرِيُّ الحجرَ الأساسَ في علم التَّاريخ عند العرب، ومثَّلَ مدرسةً اشتهرت على مدار قرون، عُرفت بالمدرسة الجريّة، التي كان لها منهج وسمت خاصّ بها. وشغلت السَّيْرَةَ النَّبَوِيَّةَ حيزًا كبيرًا ومهمًّا في تاريخه، ذلك التَّاريخ العالميّ الذي نال رضا المؤرِّخين السَّابِقين واللاحقين واستحسانهم، لما تضمَّنه من أخبارٍ وحوادثٍ كانت مصدرًا مُعتمدًا لكلِّ مَنْ جاء بعده. ورأينا أن نقدّم قبل الولوج في ذلك لمحةً تاريخيةً مُوجزةً عن كُتَّاب السَّيْرَةِ قَبْلَ الطَّبْرِيِّ وأبرز مؤرِّخيها.

* الجامعة العراقيّة / كَلِيَّةُ التَّربِيَةِ - بَغدَاد.

الكلمات المفتاحية: الطبري، السيرة النبوية، ابن إسحاق، الإسناد، الواقدي.

مقدمة:

يذكر الأستاذ شاكر مصطفى أن الذهبي (ت ٧٤٨هـ) نبه في كتابه «تذكرة الحفاظ» إلى أن السنة التي بدأ فيها تدوين العلوم في الإسلام هي سنة (١٤٣هـ)، فيقول: في سنة ثلاث وأربعين ومائة شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقهاء والتفسير... وصنف ابن إسحاق المغازي... ودونت كتب اللغة والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم.

والسيرة النبوية، التي بدأ تدوينها منذ ذلك التاريخ، علم به حاجة إلى فتح الآفاق لاستشراف رؤية جديدة، كي ينال حظّه من الأبحاث والدراسات ويصل إلى العالمية، كما عبّر عن ذلك الأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري في دعوته إلى ضرورة تطوير أسلوب كتابة السيرة النبوية ومنهجيتها، وتأكيد به بأنها تحتاج إلى جهود هائلة للارتقاء بها إلى مستوى الدراسات العالمية في ضوء ما تشهده الدراسات الاجتماعية في العصر الحديث من تطور هائل.

ويعدّ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) أحد أبرز مؤرخي القرن الثالث للهجرة، ورائد الكتابة التاريخية وشيخها فيه، وعمدة من جاء بعده من كتّاب السيرة والمؤرخين، وقد استحقّ هذا الإمام لقب شيخ المؤرخين؛ وذلك لما قدّمه من خدمة للتراث الإسلامي والإنساني

على السواء، فهو المؤرّخ الكبير، والمفسّر العظيم، والفقهاء المجتهدين، والمقرئ المتقن، والأديب الشاعر، الذي أعطت مؤلفاته وإنتاجه الثرّ الوجه الناصح للأمة العربية والإسلامية، ولم تنزل هذا المؤلفات تتداول شرقاً وغرباً بين أيدي المشايخ وطلاب العلم في شتى مجالات المعرفة إلى يومنا هذا، بعد مرور أحد عشر قرناً على وفاته.

وسنأخذ بطرف من بعض علومه وهو السيرة النبوية التي أبدع في كتابتها في تأريخه المعروف «تاريخ الرسل والملوك»، للوقوف على أبرز الملامح العامة لمنهجه في تدوينها.

وتمّ تقسيم البحث إلى مطلبين، كان الأول بعنوان: «لمحة تاريخية عن كتاب السيرة قبل الطبري وأبرز مؤرخيها». فيما جاء المطلب الثاني تحت عنوان: «معالم المنهج التاريخي في سيرة الطبري». ثمّ ذكرت أهم المصادر والمراجع المعتمدة فيه.

المطلب الأول:

لمحة تاريخية عن كتاب السيرة قبل الطبري وأبرز مؤرخيها

امتازت الأمة العربية الإسلامية من بين الأمم بحفظها لتاريخها، الذي جسدت فيها مآثرها وأيامها وبطولات رجالها، وحق لها أن تفخر بهذا التاريخ، لأنه يمثّل هويتها. وتاريخ العرب في حقبة الجاهلية زاخر بروايات وأشعار تُعدّ الوعاء والسجلّ الجامع لأشتات أخبارهم في جزيرة العرب واليمن، حتّى أسموه «أيام العرب»، وهو لون من التاريخ المنقول شفاهياً قبل تدوينه، كان ولا يزال محطّ اهتمام الباحثين والدراسين والمتابعين

تراث العرب قبل الإسلام، لأنه حفظ تاريخ قبائل الجزيرة العربيّة وأنسابها وآدابها وأساطيرها ووقائعها وحروبها، ثمّ منح الثقافة الإسلاميّة فيما بعدُ مادةً قصصيةً قابلةً للاستثمار، ومادّةً سياسيّة- اجتماعيةً لتوثيق صورة الحياة القبليّة في الجاهليّة، ومادّةً لغويّة- أدبيّة بما يحمل من تراث شعريّ وقصصيّ أثريّ الدّراسات الخاصّة بلغة القرآن الكريم^(١).

من هنا كان اهتمام جمهور علماء المسلمين بجمع الروايات والأخبار المتعلّقة بكلّ ما أشار إليه القرآن الكريم والسنة النبويّة؛ لأنّ الإسلام دين تاريخيّ الرّوح يحمل في ذاكرته فكرة تاريخيّة عميقة، والعقيدة الإسلاميّة لا تعدّ نفسها جديدةً فإنّ لها امتدادات عميقة الجذور في التّاريخ^(٢).

كانت حاجة المسلمين ماسّةً إلى معرفة سيرة الرّسول (صلى الله عليه وسلّم) والصّحابة من بعده، لا بوصفه قائد دينياً أكبر فقط، ولكن لأنّه المصدر الرّئيس الثّاني من مصادر التّشريع الإسلاميّ، فكلّ حديث منه قانون وكلّ عمل سنّة. وكذلك أعمال الصّحابة، فكان لا بدّ من تسجيل كلّ ذلك ليكتمل قانون الإسلام في مسيرة الجماعة، وقد أدّى ذلك إلى تسجيل السّيرة بدقائقها^(٣).

ولأجل ذلك اعتنى علماء السّير عنايةً شديدةً بحياة الرّسول (ﷺ) التي سُمّيت بالمغازي، وتعني

لغويّاً غزواته (صلى الله عليه وسلّم) وحروبه، ولكنّها تناولت في الحقيقة عصر الرّسالة بكامله. وقد تناقل الإخباريون تلك المغازي برواياتٍ فيها ما فيها من أوهام وأساطير وقصص، ونقلها أيضاً علماء الحديث والمصطلح، وذكروا تفاصيل السّيرة النبويّة وأخبار الخلفاء الرّاشدين (رض)، عن طريق الأسانيد المختلفة والمتباينة بين الصّحّة والضعف^(٤).

كانت نهايات القرن الأوّل للهجرة هي البداية الفعلية لتدوين السّيرة، وكان علماء المدينة المنورة من أوائل المشتغلين في تدوينها، كونها الموطن الأصليّ للدعوة الإسلاميّة ومقرّ الخلافة الأوّل، ممّا جعلها تأخذ طابعاً مدنيّاً^(٥)، وكان من هؤلاء على اختلاف طبقاتهم: عروة بن الزبير (ت ٩٣هـ) وأبان بن عثمان بن عفّان (ت ١٠٥هـ) ووهب بن منبّه (ت ١١٠هـ) ومحمّد بن شهاب الزهريّ (ت ١٢٣هـ) وموسى بن عقبة (ت ١٤١هـ) «ولعلّ أشهرهم الزهريّ الذي يُعدّ المؤسس الحقيقيّ للمدرسة التاريخيّة في المدينة والشّام، والذي وُجدت- كما قال ابن سعد- «أحمالٌ من كتبه لدى الأمويّين» عند موته، وأعطى السّيرة النبويّة إطارها الذي نعرف إلى اليوم، فقد محّص الروايات وجمع الأسانيد وراعى التسلسل التاريخيّ فيها»^(٦). ثمّ انتهى علم السّيرة والمغازي إلى محمّد

(٤) «أصول البحث التاريخيّ»، عبد الواحد ذنون: ٥٣-٥٥.

(٥) «الطّبريّ السّيرة والتّاريخ»، عبد الرّحمن

العزّاوي: ١٧٣.

(٦) «التّاريخ العربيّ والمؤرّخون»: ١٥٧.

(١) يُنظر: «التّاريخ العربيّ والمؤرّخون»، شاكر مصطفى: ٥٧.

(٢) يُنظر: المرجع نفسه: ٥٧.

(٣) المرجع نفسه: ٦٢.

بن إسحاق (ت ١٥١هـ). الذي اختصر سيرته ابن هشام (ت ٢١٨هـ). ثم جاء من بعده محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) الذي تضمنت سيرته كثيراً من روايته، وتلا الواقدي تلميذه وكتابه محمد بن سعد صاحب كتاب الطبقات الكبرى^(٧). وقد اتخذت هذه المدرسة شكل الرواية المجردة من النقد والتحليل والتدقيق، ولكنها لم تتمكن من المحافظة على مكانتها بعد انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد في عهد العباسيين، التي لها ميزتها في الميل إلى النقد والإيجاز^(٨).

وحيث دُوِّنت كتب السنة النبوية خصص لها بابٌ مُستقلُّ كان عنوانه: المغازي والسير، حتى استقلَّ علم السيرة النبوية وخصصت له المصنفات والمؤلفات^(٩)، وواصلت الدراسات الخاصة العناية بها، فكانت هي الأساس الذي تنطلق منه دراسة التاريخ، ثم توسعت لدراسة حياة الصحابة والخلفاء وأعمالهم، ثم امتدت لتشمل تاريخ الأمة وعلاقتها بالأمم الأخرى والعالم^(١٠).

وما يهمننا هو تدوين السيرة قبل الطبري، ولعلَّ أبرزها سيرة ابن إسحاق ومغازي الواقدي، فهما أقدم المصادر التاريخية التي وصلت إلينا، وسنعرِّج على سيرتيهما أنموذجين مختصرين لما

كُتب في السيرة قبل الإمام محمد بن جرير الطبري، الذي سوف نتناول معالم منهجه في تدوين السيرة النبوية.

نبذة مختصرة عن ابن إسحاق وسيرته:

هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار المدني، ولد في المدينة المنورة سنة ٨٥هـ. وكان جده يسار من سبي منطقة عين التمر بالعراق حين فتحت سنة ١٢هـ في خلافة أبي بكر الصديق^(١١). وقد اهتم به أبوه لأنه كان أحد رواة الحديث، فروى محمد عن أبيه مذ كان صغيراً، فضلاً عن كبار علماء المدينة الذين تتلمذ على أيديهم. ثم ارتحل إلى مصر وأخذ من علمائها^(١٢).

وحيث عاد إلى المدينة أصبح من علمائها المعروفين، فقد عاصر الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت ٢٧٩هـ) إمام أهل المدينة، وحين سمع به الخليفة أبو جعفر المنصور استدعاه وطلب منه أن يؤلف كتاباً لابنه ووليَّ عهده المهدي، فلما انتهى منه وجده المنصور مطوَّلاً فقال له: اذهب فاخصره، فعاد وقدم السيرة التي تعدُّ أول كتاب يُصنَّف في السيرة النبوية، ويتألف من ثلاثة أقسام^(١٣):

١-المبتدأ: ويتناول تاريخ العرب قبل الإسلام.

(١١) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ١٦٠.

(١٢) للمزيد عن حياة ابن إسحاق ونشأته العلمية تُنظر المقدمة التي كتبها الدكتور سهيل زكار في تحقيقه لكتاب ابن إسحاق «السيرة النبوية» (طبعة دار الفكر - بيروت).

(١٣) «وقفيات الأعيان»: ٤ / ٢٧٧؛ و«أصول البحث التاريخي»، عبد الواحد ذنون: ٥٧.

(٧) يُنظر: «ضحى الإسلام»، أحمد أمين: ٢ / ٣١٩.

(٨) «الطبري السيرة والتاريخ»: ١٧٣.

(٩) «الإمام الطبري شيخ المفسرين وعمدة المؤرخين»، محمد وهبة الزحيلي: ٢٠٢.

(١٠) «الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل»، هاشم يحيى الملاح: ١٩٨.

٢-المبعث: ويشمل حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة والهجرة.

٣-المغازي: وتشمل غزواته وسراياه.

كان ابن إسحاق أبعد أفقاً وأوسع تفكيراً من سابقه، فقد جمع بين أساليب المحدثين والقصاص، وكانت مصادر معلوماته متنوعة، فأخذ من علماء غير المسلمين في أخباره عن المبتدأ وروى قصصاً يمانية في ذلك. أما رواياته عن المبعث والمغازي فتميزت بالرجوع إلى شيوخه بالمدينة المنورة وكثرة الأسانيد عن الذين روى الخبر^(١٤).

ومع تبخر ابن إسحاق بالعلم فقد اختلف العلماء فيه، فمنهم من يعده ثقة ويأخذ عنه مروياته، ومنهم من يمسك عن الاحتجاج بروايته لجملة أسباب، منها: أنه لا يخصص مصادره، وكثرة أخطائه، وذكره الشعر الموضع^(١٥). وبرغم هذه المآخذ فإن كتابه يرتفع إلى منزلة عالية القيمة بسبب قدمه. غير أن سيرته لم تصل إلينا كاملة؛ لأن ابن هشام اختصرها وهذبها، وهي التي بين أيدينا الآن^(١٦). توفي ابن إسحاق سنة ١٥١هـ ودفن بمقبرة الخيزران ببغداد^(١٧).

(١٤) «أصول البحث التاريخي»: ٥٨.

(١٥) «الكامل في ضعفاء الرجال»، الجرجاني: ٧ / ٢٥٥؛ «المدخل إلى التاريخ»، نور الدين حاطوم وآخرون: ٢٠٩.

(١٦) «أصول البحث التاريخي»: ٥٨.

(١٧) «تاريخ مدينة السلام»، الخطيب البغدادي (بتحقيق د. بشار عواد معروف): ٧ / ٢.

نبذة مختصرة عن الواقدي وسيرته:

هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المدني، ولد سنة ١٣٠هـ بالمدينة، سمع من الامام مالك ومن صغار التابعين فضلاً عن علماء الحجاز والشام، انتقل إلى العراق في عهد الخليفة هارون الرشيد واتصل بيحيى البرمكي، فأغدى عليه عطاياه وقربه من الرشيد، وولاه القضاء في بغداد، وكان جماعاً للكتب يشترها ويستنسخ حتى بلغت ستمائة قمطر، بقي في بغداد إلى أن توفي سنة ٢٠٧هـ^(١٨).

أما كتابه في السيرة النبوية فهو يمثل الصورة الأخيرة لتطور كتابتها في القرنين الأول والثاني للهجرة، واقتصر على غزوات الرسول وسراياه في العهد المدني. أما منهجه فيها فقد طبق قواعد المنهج الإسلامي أكثر من ابن إسحاق، ولم يهتم بالحقب السابقة للإسلام ولا بالعصر الجاهلي^(١٩). عرض الواقدي الأحداث بطريقة منظمة وجيدة، بحيث أنه يذكر الرجال الذين ينقل عنهم الأخبار، ثم ينتقل إلى المغازي ويدرسها بالتسلسل الزمني، ويدقق في تحديد التواريخ^(٢٠)، ويعرف بجغرافية المكان الذي حدثت فيه الغزوة، ولا يكتفي بهذا بل يذهب إلى موقعها ويجري ما يشبه المسح الميداني لها ويعاينه بدقة بالغة، مع ذكره لأسماء الصحابة المشتركين في الغزوة، واستخدامه الإسناد والتقليل من الشعر والقصاص. وهو يرجح بعض الروايات المتناقضة على بعضها.

(١٨) «تاريخ مدينة السلام»: ٤ / ٢٢٢؛ «التاريخ العربي

والمؤرخون»: ١٦٣.

(١٩) «أصول البحث التاريخي»: ٥٨.

(٢٠) «التاريخ العربي والمؤرخون»: ١٦٥.

ولكن مع كل تلك الأمور انتقده كثير من المُحدّثين والنُّقاد؛ لأنّه خلط الغث بالسّمين والخرز بالدرّ الثّمين، وعدّوه من المجروحين^(٢١).

المطلب الثّاني:

معالم المنهج التّاريخيّ للطّبريّ في تدوين السّيرة النّبويّة

عُرف الطّبريّ بأنّه علّم من أعلام التّاريخ الإسلاميّ لا يحتاج تعريفًا ولا توصيفًا، فالرجل تجاوز كلّ ذلك بما تركه للأمة من تاريخ وتفسير اختصّ ووُسمَ به (تاريخ الطّبريّ)، وتفسير الطّبريّ)، فضلًا عن علوم أخرى كالفقه والقراءات لا مجال لذكرها، ولا غنى لأبيّ باحث أو طالب علم عن كتبه التي ألفها في بلدان مختلفة، مُتنقلاً يطلب العلمَ في غير كَلِّ ولا مَلِّ، من أملَ بطبرستانَ إلى الرّي ثمّ بغدادَ والبصرة والكوفة وواسط، جَمَعَ في كلّ تلك الرّحلات تراثه طوال أربعين عامًا، فاستحقّ قولًا وفعلاً لقبَ شيخ المؤرّخين الكبار^(٢٢).

لقد خصّ الطّبريّ سيرة الرّسول (ﷺ) في تاريخه باعتناء بالغ، وشملت حيّزًا كبيرًا منه، وذلك بتطرّقه إلى حوادث سيرته بتفصيلٍ منذ ولادته (صلى الله عليه وسلّم) إلى وفاته... وقد منحها

(١٨) «تاريخ مدينة السّلام»: ٤ / ٣٢٢: «التّاريخ العربيّ

والمؤرّخون»: ١٦٣.

(١٩) «أصول البحث التّاريخيّ»: ٥٨.

(٢٠) «التّاريخ العربيّ والمؤرّخون»: ١٦٥.

(٢١) «سِير أعلام النّبلاء "الذهبي": ٨ / ١٥٨؛ «الكامل في

ضعفاء الرّجال»، الجرجاني: ٧ / ٤٨١.

(٢٢) «التّاريخ العربيّ والمؤرّخون»: ٢٥٥.

الطّبريّ أهميّةً في تاريخه، وذلك حين تناولها بالتّفصيل والشّمول، لأنّ السّيرة النّبويّة تمثّل مُنعطفًا كبيرًا وحدّثًا جسيمًا في تاريخ البشريّة، وفي حقبة من فطور الرّسالات وانقطاعٍ من الرّسل، حفّزت كُتّاب السّير- ومنهم الطّبريّ- على جمع الرّوايات بغثها وسمينها وتقديمها للنّاس بحسب طريقة كلّ أخباريّ أو مُحدّثٍ أو كاتبٍ.

لقد مثّل الطّبريّ قَمّة ما وصلت إليه الكتابة التّاريخيّة عند العرب في مرحلة التّكوين، وبلغ علمه بالرّوايات التّاريخيّة- ومنها السّيرة النّبويّة- والرّوايات الفقهيّة منزلةً لا تُبارى^(٢٣). وهو إذ يقومُ بجمع المادّة التّاريخيّة الخاصّة بالسّيرة التي استقاها من مناهل عدّة تجعل قيمة الرّوايات عنده تعتمد على قوّة أسانيدها، وكلّما كان السّند أقرب إلى الحادثة كان أفضل، وهكذا وعن طريقه وصلت إلينا روايات مبكّرة- على حدّ تعبير د. عبد العزيز الدّوري- لم تُحفظ إلّا في تأريخه^(٢٤). وقد ظلّت أجيال المؤرّخين في العصور التّالية عيالًا على كتابه في كلّ ما يتّصل بالقرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام^(٢٥).

يذهب الطّبريّ في اختيار مادّته التّاريخيّة في السّيرة النّبويّة بمختلف حوادثها إلى كتاب السّيرة لابن إسحاق وابن هشام، فضلًا عن الواقديّ وابن الكلبيّ، إلى جانب المرويّات الكثيرة التي يأخذها من كتب علماء آخرين في علوم الحديث وغيره. وفي

(٢٣) «نشأة علم التّاريخ عند العرب»: ٤٧.

(٢٤) المرجع نفسه: ٤٨.

(٢٥) «التّاريخ العربيّ والمؤرّخون»: ٢٦١.

أحياناً أخرى نراه يعتمد على معلومات تصل إليه عن طريق المراسلة والكتابة التي هي إحدى طرق تلقي العلم^(٢٦).

وتختلف نسبة استقائه المادّة التّاريخيّة في سيرته، فالملّاحظ عنه أنّه يأخذ كثيراً من مروياته التّاريخيّة من الواقديّ، وإحالاته إليه أكثر من أن تُحصّر. ولعلّ أسلوبه المتّبع في ذلك ذكره عبارة (قال الواقديّ) تؤكّد زهابه إلى ذلك المنهج الذي اختصّ به. وفي أحيان أخرى نراه يعتمد على الوثائق والمراسلات التي جرت بين النّبّي (ﷺ) وملوك أهل زمانه، وكان يُوردها من دون أن يتوثّق منها^(٢٧). ومن هنا نستطيع أن نجمل المنهج الذي اتّبعه الطّبريّ في تدوينه للسّيرة النّبويّة، وكالاتي: **أولاً:** ربّ حوادث السّيرة على السّنين (الحواليّات) وليس على الحوادث مع استعمال المنهج الموضوعيّ، بل ربّتها ترتيباً زمنياً عامّاً بعد عامٍ وحولاً بعد حولٍ، ابتداءً من الهجرة ووصولاً إلى الوفاة، باعتبار أنّ السّيرة هي جزء من تاريخه (تاريخ الرّسل والملوك). وهو يفعل ذلك تقليديّاً لغيره من علماء التّوراة، بالبدء بالخلقة ثمّ تاريخ الأنبياء على وفق ما ورد في كتبهم، ثمّ يتعرّض إلى الحوادث التي وقعت في أيّام كلّ نبيّ، ويذكر الملوك والحكّام الذين كانوا يعارضونهم وما جرى

بينهم من حوادثٍ وحروبٍ^(٢٨). فنراه جعل النّبّي (ﷺ) ثمّ الخلفاء الرّاشدين من بعده، كلّاً حسب زمنه، محوراً تدور حوله الحوادث.

ومما يسترعي التّنبيه له أنّ طريقة الحوليّات ليست من ابتكاره، فقد سبقه إليها الهيثم بن عديّ (ت ٢٠٧هـ) والواقديّ (ت ٢٠٧هـ) وغيرهما، وسار على هذه الطّريقة بعد الطّبريّ كثيرون كأمثال مسكويه (ت ٤٢١هـ) وابن الجوزيّ (ت ٥٩٧هـ) وابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) وغيرهم. وخالف هذه الطّريقة آخرون كاليعقوبيّ (ت ٢٨٤هـ) والمسعوديّ (ت ٣٤٦هـ) وغيرهما^(٢٩).

ثانياً: اعتمد في كتابته للسّيرة النّبويّة على روايات أبان بن عثمان وعروة بن الزّبير وشرحبيل بن سعد وموسى بن عقبة وعاصم بن عمر ومحمّد بن شهاب الزّهرّيّ ومحمّد بن إسحاق^(٣٠). وإذا كانت الحادثة التي ينقلها عنهم طويلة، فإنّه يُجزّئها ويُشير إلى مجملها، ثمّ يذكرها مفصّلة في موضعٍ آخر، وهذا يُفسّر العدد الضّخم لمصادره في الموضوع الواحد أو الحادثة الواحدة، ولهذا جاءت الحوليّات الخاصّة بالسّيرة النّبويّة متباينةً في الحجم وبحسب كثرة الأحداث وتداخلها وأهمّيّتها^(٣١).

(٢٨) «الإمام الطّبريّ شيخ المفسّرين وعمدة المؤرّخين»: ٢٣٠.

(٢٩) «أصول البحث التّاريخيّ»: ٦٣.

(٣٠) «التّاريخ العربيّ والمؤرّخون»: ٢٥٥.

(٣١) «نشأة علم التّاريخ عند العرب»: ٤٨.

(٢٦) «محمّد بن جرير الطّبريّ ومنهجه في تفسير القرآن

الكريم وكتابة التّاريخ»، عبّاس توفيق: ٧٦؛ «التّاريخ

العربيّ والمؤرّخون»: ١٦٥.

(٢٧) المرجع نفسه: ٧٧.

ثالثاً: نقل الطَّبْرِيُّ الرواياتِ على اختلافِ حوادثها من دون تعليقٍ أو ترجيحٍ، وترك ذلك للقارئ كما هو معروف عنه في مقدّمته لتاريخه، لكنّه في أحوالٍ نادرةٍ يُعلّق على الأحداث ويرجّح بعضها على بعض. ولعلّ اكتفاءه بإيراد الخبر على الرّغم من نُبل مقصده، هو من باب أمانة أداء ما وصل إليه، وتقليص دوره في نقد الخبر، حتّى أنّه لا يستنبط منه تصوّراً للحادثة التّاريخيّة، الأمر الذي أوقعه في دائرة الاتّهام أحياناً، وفي منزلق الجمع بين الحقائق والأساطير في أحيانٍ أخرى^(٣٢).

وكان أبرز مَنْ انتقده في ذلك ابنُ الأثير في تاريخه وابنُ خلدون في مقدّمته^(٣٣). وقد علّق على تلك الحالة الأستاذ شاكِر مصطفى بقوله: (ولعلّه أنقص في منهجه كمدّث، فلم يُعدّل رواة التّاريخ الذين نقل عنهم كما يُعدّل المحدثون علماء الحديث)^(٣٤).

رابعاً: ذكر الطَّبْرِيُّ الروايّة بسندها الموصول إلى صاحبها على طريقة علماء الحديث النّبويّ، فإذا سمع من شخصٍ روايّة وأذاها له مشافهة قال: «حدّثني فلان»، وإذا كان مع الرّاوي شخصٌ آخر يشترك معه في السّماع قال: «حدّثنا فلان» أو «أخبرنا فلان». أما إذا نقل من الكتب فإنّه يقول:

(٣٢) «محمّد بن جرير الطَّبْرِيُّ ومنهجه في تفسير القرآن الكريم وكتابة التّاريخ»: ٨١.

(٣٣) يُنظر: «الكامل في التّاريخ»: ١ / ٢٢-٢٣ و«مقدّمة ابن خلدون»: ٢٣٠.

(٣٤) يُنظر كتابه: «التّاريخ العربيّ والمؤرّخون»: ٢٥٩.

«قال فلان» أو «وذُكر» أو «رُوي»^(٣٥) وقد يُهمل اسمَ الشّخص المحدث واسم الكتاب ومؤلّفه^(٣٦).

خامساً: استخدم الطَّبْرِيُّ بعض قواعد علم مصطلح الحديث- السّند- التّزاماً منه بمنهج المُحدّثين في روايتهم للحديث النّبويّ. وقد انعكست ثقافته الإسلاميّة كمدّث وفقهه في تاريخه ومنها ما يخصّ السّيرة النّبويّة^(٣٧).

سادساً: قبل الطَّبْرِيُّ في نقله للمادة التّاريخيّة، سواء بالسّيرة أو غيرها، روايّة الضّعفاء مثل محمّد بن السّائب الكلبيّ وابنه هشام بن محمّد الكلبيّ وغيرهما، فضلاً عن قبوله رواية المجاهيل والروايات المُرسّلة، وتجنّب إعطاء حكم على الروايات، وأبدى حياداً واضحاً عمّا ورد فيها^(٣٨).

سابعاً: حرص الطَّبْرِيُّ على ضبط النّصوص، فذكر أحداث كلّ سنة من السّيرة النّبويّة منفردةً، وهو يذكر للحادثة الواحدة عدّة رواياتٍ مختلفة لاعتقاده بأهميّة ذكرها دون نقدها كما ذكرنا آنفاً. أمّا ما يخصّ ضبطه للنّص فهو يرويه دون تغييرٍ أو تبديلٍ حتّى ولو كانت فيه أشعار وألفاظٌ أعجميّة؛ التّزاماً منه بأمانة النّقل.

ثامناً: استطراده في بعض النّصوص الواردة بالسّيرة بتفصيلات يرى أنّ من الضّرورة التّوسّع

(٣٥) يُنظر كتابه «تاريخ الرّسل والملوك»: صفحات متعدّدة.

(٣٦) «محمّد بن جرير ومنهجه في تفسير القرآن الكريم وكتابة التّاريخ»: ٧٧.

(٣٧) «الحضارة الإسلاميّة»: ٢١٩.

(٣٨) «نشأة علم التّاريخ عند العرب»: ٤٨.

الرّسائل والخُطب والمحاوِرات الأدبِيّة فيما يتعلّق بالسّيرة وغيرها.

حادي عشر: اقتباسه ممّن سبقه، فهو قد اقتبس كثيراً من نصوص سيرة ابن إسحاق وضمّنها تاريخه في الجزء المخصّص منه للسّيرة النبويّة، معتمداً رواية سلّمة بن الفضل لتلك السّيرة وبنصوص كثيرة جداً. وبسبب ذلك فقد وردت في سيرة الطّبريّ ضمن تاريخه روايات لم يذكرها ابن هشام في تهذيبه لسيرة ابن إسحاق.

ثاني عشر: مع معرفتنا طريقتة المعهودة بسرده الأخبار بصورة عامّة وتركيزه على أهم ما يردّ فيها، فإنّه كان يضع في نهاية تلك الأحداث مجموعة أخبار متنوّعة ولسنين مختلفة من الأخبار السريعة، وربّما كان حريصاً على أن لا يفوته شيءٌ، وأن يكون تأريخه شاملاً. مثل ما ذكره في أحداث سنة اثنتي عشرة للهجرة، إذ قال: (وفيها تزوّج عمرُ رحمه الله عاتكة بنت زيد، وفيها مات أبو مرثد الغنويّ، وفيها مات أبو العاصي بن الرّبيع في ذي الحجة وأوصى إلى الرّبير وتزوّج عليٌّ عليه السّلام ابنته، وفيها اشترى عمرُ أسلمَ مولاَه)^(٤١).

في حوادثها، ويعرض الحواشي المتعلّقة بها ثمّ يعود إلى الحادثة الرّئيسة التي كان يتحدث عنها، بل نجده يُدكّر القارئ بها بقوله: «نعود إلى سياق خبر كذا» أو «خبر فلان»^(٣٩).

تاسعاً: ذكره للوثائق التّاريخيّة التي أكثر من إيرادها في السّيرة النبويّة، بحكم أنّ الوثائق أصحّ ما في كتب التّاريخ وأصدقُه، ولا شكّ إنّ ذلك يُحسب له مؤرّحاً يتحرّى الدّقة والموضوعيّة في تناول السّيرة، فقد ذكر نحواً من ثلاثين وثيقة تتعلّق بالعهد المدنيّ.

عاشراً: اهتمامه بالشّعر والأدب، فقد مكّنه ولعُه بالشّعر وقوّة حافظته من اعتماده بالسّيرة مصدراً أساساً وثقّ به الحوادث الكثيرة التي جمعها واستقصاها من مصادرها. ومثال ذلك ما نقله من أشعار ابن إسحاق الذي حشا كتابه بصحيح الشّعر وسقيمه على حدّ سواء، والغريب أنّ الطّبريّ لم يتوثّق من صحّتها وسلامتها^(٤٠). وعلى الرّغم من ذلك فإنّ أهميّة هذا الشّعر تتضح في انفراد بنصوص شعريّة لم تردّ عند غيره من كتّاب السّير. وفضلاً عن ذلك فقد نقل بعض

(٣٩) يُنظر كتابه: «تاريخ الرّسل والملوك»: صفحات متعدّدة.

(٤٠) «محمّد بن جرير ومنهجه في تفسير القرآن الكريم وكتابة التّاريخ»: ٧٥.

(٤١) «تاريخ الرّسل والملوك»: ٢ / ٣١٠.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأوّليّة

- «تاريخ مدينة السّلام»، أبو بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغداديّ، تحقيق: بشّار عوّاد معروف، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ.

- «تاريخ الرّسل والملوك»، أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط ٦، ١٩٩٠م.

- «السّيرة النّبويّة»، محمّد بن إسحاق بن يسار المطلبيّ (ت ١٥١هـ)، تحقيق: سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

- «سیر أعلام النّبلاء»، شمس الدّين محمّد بن أحمد الذهبيّ (ت ٧٤٨هـ)، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- «الكامل في التّاريخ»، ابن الأثير، أبو الحسن عليّ بن أبي الكرم الشّيبانيّ (ت ٦٣٠)، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٥هـ.

- «الكامل في ضعفاء الرّجال»، أبو أحمد بن عدي الجرجانيّ (ت ٣٦٥هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.

- «مقدّمة ابن خلدون»، ابن خلدون، ولي الدّين عبد الرحمن بن محمّد الحضرميّ (ت ٨٠٨هـ)، مطبعة مصطفى الحلبيّ، بيروت، (ب. ت).

- «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان»، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدّين أحمد بن محمّد (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عبّاس، ط ٧، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.

ثانياً: المراجع الحديثة

- «الامام الطّبريّ شيخ المفسّرين وعمدة المؤرّخين ومقدّم الفقهاء المحدّثين»، محمّد وهبة الرّحيلي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩

- «أصول البحث التّاريخيّ»، عبد الواحد ذنون، منشورات جامعة الموصل، دار ابن الأثير، الموصل، ١٩٩٠م.

- «التّاريخ العربيّ والمؤرّخون- دراسة في تطوّر علم التّاريخ»، شاكر مصطفى، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣م.

- «الحضارة الإسلاميّة وآفاق المستقبل»، هاشم يحيى الملاح، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ٢٠١٠م.

- «ضحى الإسلام»، أحمد أمين، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- «الطّبريّ السّيرة والتّاريخ»، عبد الرّحمن العزّاوي، دار الشّؤون التّقانيّة، بغداد، ط ١، ١٩٨٩م.

- «فنّ السّيرة»، إحسان عبّاس، دار الثّقافة، بيروت، ١٩٩٠م.

- «محمّد بن جرير الطّبريّ ومنهجه في تفسير القرآن الكريم وكتابة التّاريخ»، عبّاس توفيق، دار ناشري للنشر الإلكترونيّ، ٢٠١٣م.

- «المدخل إلى التّاريخ»، نور الدّين حاطوم وآخرون، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٥م

- «نشأة علم التّاريخ عند العرب»، عبد العزيز الدّوري، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥